هل ارتقى الانسان ؟

كد المرء عقله فى استجلاء غوامض الكون ، و استفرغ قواه في استيعاب خفايا الطبيعة ، فأصاب في كثير مما سعى اليه ، فقد امتلك ناصية الهواء ، وغاص فى عباب الماء ، و سابق الريح على أديم الغبراء ، و استحدث لنفسه كل أسباب الترف و الرفاهية . و تمتع بلذائذ العيش ، دافعاً عنه عاديات الحياة ، حتى استقام له كل أمر فى دنياه . فوقع فى خلده انه أصاب من الرقى أروعه ، ومن التقدم أعظمه ، و من المدنية مافات أمنية المتمنى .

و لو تدبرنا مليا مايقع تحت انظارنا ، و تأملنا فى تأثير مستنبطاتنا و اختراعاتنا ، لبدا لنا ان مانحن فيه ، ليس حضارة ولا تقدماً . بل لانغالى اذا قلنا انه بدء انحطاط و رجوع القهقرى ، لان الرقى الحقيقي الذى يجب أن ننشده ، يكون فى نفسيتنا ، لا فى المادة التى نمتلكها ، فهل تهذبت نزعاتنا ، و رقت عواطفنا ، وسمت ميولنا ، عما كانت عليه منذ فطرنا ؟

هذا سؤال يبدو لاول وهلة غاية فى الغرابة ، لان مامن أحد أحاط باحوالنا الاجتماعية ، و استوعب دقائقها ، و استظهر بواطنها ، الا و هز كتفيه استخفافاً به ، و لكن الذين لا يؤخذون بالظواهر الخداعة ، بل يتطلعون الى الجوهر ، دون احتفال بالعرض ، يؤكدون ان نفسية الانسان لم تتقدم قيد أنملة ، عما كانت عليه ، يوم كان اسلافه يقطنون الكهوف و المغاور ، بل بالضد يرون انها قد دنأت و انحطت عن ذى قبل .

و لما كانت فعال المرء نتيجة عوامل خفية ، رأينا أن نبدى ماا ستترمن كوامن نفسه ، ليتسنى لنا اماطة اللثام عن تلك الدوافع التى تعمل فى نفسه . على استقرار الغرائز الهمجية ، رغماً عما يبدو فى ظاهره من الرقى و المدنية .

النزعة الحيوانيـة ، و النزعة الانسانيـة

للانسان نزعتان : نزعة حيوانية ، و نزعة انسانية ، فالاولى غريزية فيه ،

تكون فى نفسه منذ نشأته ، و تلبث مالكة قيادة ، دون منازع ، كل زمن طفولته ، حتى اذا نضج عقله ، و نمت مداركه ، وحسنت تربيته ، تولدت فيه النزعة الانسانية ، فتأخذ الاثنتان فى عراك و صدام ، لتباين مراميهما ، و تنافر اغراضهما ، فتعمل الحيوانية على اطلاق الاهواء من عقالها ، وحل إسار الميول و انالة النفس ماتصبو اليه وتشتهيه ، دون تقييد بعرف ، و لاتهيب لامر ، وتسعى الانسانية الى حبس دوافع المرء ، و كبح جماح اهوائه ، و تلطيف مراميه ، و تهذيب غرائزه ، حتى تجعله المثل الاعلى لكل حسنة و محمدة .

و لما كانت النزعة الحيوانية متأصلة فى نفسه ، مستكنة فى جوانبه ، مسيطرة على اهوائه ، كانت الغلبة لها ، لانها وليدة العواطف ، والعواطف وثابة جموحة ، اذا إستثيرت ، و هى ثور لا وهى سبب ، لاتعبأ بعقل ، و لاتقيد بارادة .

و اذا عدمت سيطرة العقل كان دليل المرء اهواؤه ، و بئس الدليل هى ، اذ تقوده بعنف و شدة الى الاثرة التى هى أس شقاء الانسانية ، ورأس بلائه ، فالمرء نزوع بطبيعته الى الانانية ، وكل مايبدو منه فى مختلف أطوار حياته ، رائده حب الذات ، فاذا تحررت هذه الغريزة من قيد العقل صيرت الانسان وحشاً كاسرا ، لايلذ له غير اتيان المنكرات ، واقتراف الموبقات.

و نرى أكثر العقول رقياً ، تفقد ذاتيتها عند ثوران النزعة الحيوانية ، دون ان تجد من النزعة الانسانية عضداً يشد أزرها فى محنتها ، لان النزعتين نقيضتان ، لا يمكن الجمع بينهما ، فتلك تسعى الى حل إسار النفس و نزع قيودها ، وهذه تعمل على غلها و كبح جماحها

فالنزاع بينهما مستمر ، لا راحة للواحدة الا اذا تغلبت على الاخرى ، فاذا ما سيطرت احداهما ، ولت الاخرى مدبرة . ولا تعود الا اذا خذلت خصيمتها .

وهكذا يلبثان فى كر وفر ، والانسان بينهما كريشة فى مهب الريح ، لايملك لنفسه قوة ، الا بمقدار ما منح من عقل ، . وما أشد ضعف العقل ، ازاء العواطف ، التى هى شعلة القلب المتقدة !

الانانية هى الانسان

لايكون الانسان إنسانا إلا اذا كان أنانياً ، فالاثرة وحب الذات صفتان متممتان لخلقه . وهمارائداه فى كل أعماله ، وغايته فى دنياه .

فلو فحصنا كل مايبدو منه فى حياته ، لظهر لنا أنه مسوق فيها بحب الذات فعبادته لله عز وجل لا يبغى منها غير التنعم بجنات الخلد ، لاحب الخالق لكماله وذاته الالهية ، واحسانه الى الفقراء والمعوزين لايريد منه غير الثواب الذى يؤهله لان يدخل جنة النعيم .

وقس على ذلك سائر فعاله ، دون أن نستثنى منها عملا مهما تفه ، حتى شغف الحبيب بحبيبته فكل منها يسعى الى الآخر لانه يجد فيه المتمم لماينقصه .

وعبثا يحاول الانسان التخلص من هذا الميل الغريزى ، فانه متملك مشاعره ، مستول على عواطفه ، وما تاريخ المدنيـــة إلا تاريخ مساعى العقل البشري للتسلط على الانانية ، فهل نجحت المدنية فى المهمة التى آلت على نفسها القيام بها ؟

نظن بل نؤكد بان المدنية قد صقلت من طباع الانسان ، و هذبت من أخلاقه . و لكن هذا الصقل والتهذيب ليسا إلا خارجيين ، لم يتغلغلا الى صميمه ولن يتهيأ لهما الوصول اليه لان النزعة الحيوانية لا تغالب . فمهما كد البشر وجدوا وسعوا لادراك ماتصبوا اليه نزعتهم الانسانية ، فلن يدركوا أربهم .

وما هذه المدنية التي تتراءى لنا بزخرفها ومباهجها الاغشاء رقيق تستتر تحته طباعهم الهمجية التى تدفعهم لاقتراف كل منكر وأتيان كل موبقة . لان مظالمهم بعد ما كانت تجرى اعتباطا دون أن تتخذ لها العدة والعدد ، أصبحت منظمة تقترف بكل تدبير وامعان ، فيستعينون على إتيانها بكل ما استنبطته عقولهم من آلات التخريب والتدمير .

وماعهدنا بالحرب العالمية ببعيد . فقد تبدت فيها باجلى بيان طباع الانسان الوحشية و أنانية وأثرته ، و لم تمنعه مدنيته التى طالما تغنى بمحاسنها من اقتراف المنديات التى تترفع عنها الوحوش الضارية ، لان هذه تفترس مدفوعة بعامل الجوع ، وأما الانسان فيقتل تلذذاً بالقتل .

ولانري الجهود العقلية والمادية التي يبذلها إلا متجهة الى أمر واحد ، وهو (الشر) الذى تبعثه فيه نزعته الحيوانية ، فيوقف كل فرد من أفراده ، ذكاءه وماله وحياته ، على استحداث كل مامن شأنه الاضرار بالغير ، ليشبع نهم أثرته صادفاً عن المنفعة العامة .

ولو أحصينا جهود البشر الموقوفة على استنباط الاختراعات المضرة بالانسانية ، والاموال الطائلة المبذولة فى سبيل التسليح ، لقتل النفوس وتخريب المدن العامرة ، لبلغت تسعة أعشار الرأسمال العقلى والمالى . والعشر الباقى للفائدة العامة التى يرجى منها تخفيف ويلات الانسان .

ان دوافع الانانية تحيى فى البشر كل الغرائز الوحشية ، ولذا لا يأخذن منا العجب عند ماترى فعال الانسان فى القرن العشرين ، فرغما عن كل اختراعاته واكتشافاته ، لم تتقدم نفسيته قيد شعرة ، عما كان عليه اسلافه سكان الادغال والمغاور ، بل نرى من تسفل الاخلاق وتدهورها المستمر ، ما يجعلنا نعتقد اعتقاداً راسخاً ، إن الانسان يسير فى طريق التقهقر فى نزعاته وميوله ، ولا يبعد ان يأتى زمن تعفو فيه آثار هذه المدنية الموهومة ، القائمة على دعم النزعة الحيوانية ، التى هى أساس لكل أثرة وانانية ؟

جورجى نيقولاوس